المحاضرة الأولى : جماليات وخصائص الخطاب القرآني.

الخطاب القرآني نص فريد في الحضارة العربية والإسلامية ، وبه تميّزت عن غيرها ، ولعل هذا هو سبب تسميتها بـــ (حضارة النص) ، ولا شكَّ ان هذه الفرادة قد جاءت مرتهنة بصياغة لم يرق إليها أي نص آخر ، فهو الذي تحدى أرباب الفصاحة في العربية فأقروا بتفوقه وسموّه، وإذا كان الخطاب القرآني خطابا متعاليا متفردا ، إلاّ أنه يعد ظاهرة أسلوبية استطاعت أن تربك ثنائية الشعر والنثر ، مع أنه قد جاء على نسق الكلام العربي .

وهو مع ذلك كله رسالة إبلاغية ربانية عالمية لكل الناس ، وفي ذلك يقول سيد قطب: " لقد جاء هذا الكتاب لينشئ أمة وينظم مجتمعا ثم لينشئ عالما ويقيم نظاما ، جاء دعوة عالمية إنسانية لا تعصب فيها لقبيلة أو أمة أو جنس ...إنه جاء لإنشاء مجتمع عالمي إنساني ، وبناء أمة تقود هذا المجتمع العالمي ، وأنه الرسالة الأخيرة التي ليست بعدها من السّماء رسالة "

ومادام هذا شأنه فقد امتلك من الأدوات مايجعله مؤهلا وبشكل دائم لأن يكون من أهم الوسائل القادرة على استيعاب الأنساق الحضارية في بعديها الزماني والمكاني ، بما يتجلي في مظاهرة الثلاثة ، مظهره الأدائي ، ومظهره الإبلاغي ، ومظهره التواصلي ، فهو خطاب تنتظمه وحدة بنيوية خاصة ؛ ويؤسس سياق معناه وفق نظام معين خاص به ، ذلك لأنه نظام فكري ونظام لغوي في الوقت ذاته ، يتحدد على أنه رسالة لسانية ولكنها في الجانب الآخر رسالة عقائدية ، ذات محمولات متنوعة .

ومن هذا المنطلق نستطيع القول أن الخطاب القرآني ، هو:

- سلطة روحية ربانية توافرت فيه جميع المقومات لتحقيق الإيمان والتوحيد بالله عز وجل.
- رسالة تبليغية تتجاوز حدود الزمان والمكان ، غير مختص بأمة معينة ، وخطاب مهيأ للتوصيل ملائم لفطرة الإنسانية مستغرق لكل أجناسها.
- سلطة فنية بتساميه الأدبي المباين للمألوف الذي اعتادته العرب في شعرها ونثرها .

*خصائص الأسلوب القرآني:

من أهم خصائص الخطاب القرآني نوجز ما يأتي:

1- مراعاة مقتضى الحال : ومقتضى الحال من أهم خصائص البلاغة، فالبليغ هو الذي يكون كلامه ملائما لأحوال المخاطبين ،وعلى هذا لا يكون الكلام بليغا ولو كان في غاية الدقة والانسجام ،مراعيا لقواعد النحو والصرف وجميل الكلام ،إلا إذا كان مطابقا لمقتضى الحال.
وعليه فلابد لمن أراد أن يخاطب العالم كله أن يكون على معرفة كاملة بأحوال الناس وبيئاتهم المختلفة، وان يكون على إلمام كامل ومعرفة شاملة للغة التي يستخدمها، وان يضمن كلامه من الطاقة التعبيرية ما يجعل العقول تحتار بجماله وترى فيه جديدا في كل عصر، وأن يكون خطابه موحدا للجميع وقائما بأغراضهم ومصالحهم وممتعا لهم، وليس بوسع أي إنسان أو أديب فعل ذلك، فالأدب هو صورة عن نفسية صاحبه، وهو محدود بحدود الزمان والمكان ،فمراعاة مقتضى الحال

فيه قاصرة على المناسبة التي قيلت فيه ،وينبغي أن يفهم النص من خلال ملابساته الزمانية والمكانية ولم نعلم نصا في التاريخ كله خاطب الإنسان من حيث هو إنسان خطابا يصلح لكل زمان وبيئة إلا القرآن الكريم.

2- مسحة القرآن اللفظية:

بما يتجلي في نظامه الصوتي وائتلاف حركاته وسكناته ومدّاته وغنّاته واتصالاته وسكتاته ، مما يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس ، وبما يحمله من جمال لغوي برصف حروفه وحسن انتقائها ، وترتيب كلماته واختيارها ، حتى تألف من المجموع قالب لفظي مدهش امتزجت فيه جزالة البداوة في غير خشونة برقة الحضارة من غير ميوعة ، وتلاقت عندها أذواق القبائل العربية على اختلافها بكل يسر وسهولة ، بأن وصل هذا الجمال اللغوي قمة الإعجاز بحيث لو داخل القرآنَ شيءٌ من كلام الناس لاعتل مذاقه في أفواه قارئيه ، اختل نظامه في آذان سامعيه.

3- إرضاؤه العامة والخاصة : فإذا قرأه العامة أو قرئ عليهم أحسوا جلاله وذاقوا حلاوته وفهموا على قدر استعدادهم ما يرضي عقولهم ويمتع عواطفهم ، وكذلك الخاصة إذا قرأوه أحسوا جلاله وذاقوا حلاوته وفهموا منه أكثر مما يفهم العامة ورأوا ما فيه مالم يره غيرهم.

4- إرضاؤه العقل والعاطفة: ومعنى هذا أن أسلوب القرآن يخاطب العقل والقلب معا ويجمع بين الحق والجمال ، فتجده وهو في مواضع التوحيد والعقيدة والأحكام لا ينسى حظ العاطفة وحاجتها إلى والجمال ، فيخاطب العقل ليقنعه ، ويخاطب القلب ليمتعه.

5- جودة سبك القرآن وإحكام سرده : بذلك الترابط بين أجزائه وتماسك كلماته وجمله وآياته وسوره ، فعلى طول نصه وتنوع مقاصده وتلون مواضيعه يظهر اتساقا عجيبا وانسجاما دقيقا فيغدو وحدة متماسكة متآلفة.

6- براعته في تصريف القول وثروته في أفانين الكلام :

فالقرآن يورد المعنى الواحد بألفاظ ، وبطرق مختلفة بمقدرة فائقة خارقة تنقطع في حلبتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء ، فيختار من الألفاظ ويصرفها بدلالات مختلفة تتناسب مع السياق الذي جاءت لأجله.

قصد القرآن في اللفظ مع وفائه بالمعنى : ومعنى هذا إنك في كل جمل القرآن تجد بيانا قاصدا مقدرا على حاجة النفوس البشرية من الهداية الإلهية أن يزيد اللفظ على المعنى أو يقصر عن الوفاء بحاجات الخالق ومع هذا القصد اللفظ البريء من الإسراف والتقتير تجده قد جلى لك المعنى في صورة رائعة متكاملة وافية بالمراد.

إضافة إلى ذلك كله فقد شكل الخطاب القرآني حضورا أدبيا وجماليا وروحيا وجد قبولا باذخا في الوجدان الإسلامي ، بما احتوت عليه دواله من خصائص التلاؤم والانسجام والدّقة في أداء دلالاته ومقاده ما جعله أهم الوسائل التواصلية الإبلاغية المتفردة عن الخطابات الأخرى سموا وفصاحة وبلاغة وبيانا.

ولقد أرجع المفسرون قديما روعة النص القرآني وانسجامه إلى جانب التعبير اللفظي ، وأسلوب الصياغة ، والتناسب الصوتي ، من امثال الجاحظ والرماني ، وأرجعها آخرون إلى جانب النظم والتركيب والتقديم والتأخير والحذف والذكر وتفصيل العبارة كما ذهب إلى ذلك الجرجاني .

أما المعاصرون فقد اتّكأوا على ماذكره الأولون من مناحي الجمال في الخطاب القرآني ، وحاولوا إبراز تلك الخصائص الجمالية للنص القرآني سواء ما تعلق باللفظ ، أو بالعبارة ، أو بجوانب النظم والتركيب ، أو في جانب الصوت والإيقاع وغير ذلك مما حواه من الفنون التعبيرية ، كالقصص والأمثال .